جرح الفينيق

جرح الفينيق : قصص
المؤلفة: ريتا بربارة.
تصميم غلاف: عمرو أنور
رقم الإيداع:
مثقف (المثقفون العرب للنشر والتوزيع)

جرح الفينيق

قصص

ريتا برباره

إهداء

إلى **بيبرو ومروة وباولا وكارلا**

قناديل حياتي

هالاتي المضيئة التي أرى في أرواحها صورتي..

وأشتمُّ عبق ذكراها نسيمًا ينطلق من ياسمين الرُّوح..

وأصبح بأطيافها جديرة بالعيش.

إلى أميري الغالي.. زوجي

الحق الوحيد

قبل خروج التلاميذِ من حصة الدرس، طلب منهم المعلِّمُ أن ينقلوا إلى دفاترهم ما سيكتبُه على السبورة، وراح سميرُ مع بقيّة رفاقه ينقل:

اكتب موضوعًا إنشائيًا عن الطفولة مستندًا إلى ثلاثة مبادئ من حقوق الطفل التي كفلها له القانون الدولي.

في الطريق إلى المنزل سأل سمير رفيقه عامر: هل تعرف شيئًا عن حقوقنا؟ كان عامر يدحرج فجلة كبيرة من مخلفات القمامة بركلات خفيفة، تركها لشدّة ما ألحّ عليه سمير، وأجابه عن سؤاله، وهو يصلّح حمالات حقيبته:

لو كنّا نعرف حقوق الطفل لما قال لنا الأستاذ اكتبوا الموضوع بمساعدة الأهل.. لكنني أتمنى لو أن من حقي أن أكون مدير مدرسة،

أتعرف ماذا كنت سأفعل؟ أكمل قبل أن يجيب سمير على تساؤله: عليَّ الحلال، كنت سأرفع الأستاذ عوّاد على (الفَلَقة) في كل حصة، وكنت سأطرد الأستاذ وصفي ولن أسمح له بالعودة، حتى يحضر زوجته معه.

انطلق سمير مشاركًا في الحلم: أما أنا فأشتهي أن أكون رئيس مخفر؛ لأضع جميع الكبار في السجن، وعندها نلعب كما نشاء، وفي أي مكان نشاء، دون خوف من أحد.

في البيت أول سؤال سأله سمير لأمه كان عن حقوق الطفل، فأجابته وهي منهمكة بأعمالها: اتركني بحالي.. وهل أعرف حقوق الإنسان أولاً، حتى أعرف حقوق الطفل..؟ انتظر أباك.

في السهرة فتح سمير دفتره، وجهّز قلمه، منتظرًا جواب أبيه، وهو لن يكون إلا جملة من التوبيخات على كسله، كما كان يحصل في كلِّ مرة، إلا أنه في هذه المرة أخرج جهاز الهاتف من جيبه، وراح يبحث في جوجل، وبعد هنيهة قال لسمير اكتب: أولا حق اللعب، ثانيًا... لكن سمير بقي عند الأولى التي جلبت له أوجاع أذنيه المملوختين وجميع الآلام التي مرّت بخاصرتيه، وسيول الدموع على خدوده المتورمة. وتذكر سمير اتفاقه مع عامر على الذهاب غدًا بعد المدرسة لبستان العم صالح للعب بالكرة.

في الصباح مرّ على عامر، فأخبرته أمه بأنه خرج مع أبيه ليساعده في حمل كراتين البسطة، وسيذهب من هناك إلى المدرسة.
ما إن انعطف سمير إلى نهاية الزقاق ليصبح في بداية الشارع المؤدِّي لمدرسته، حتى باغت عينيه مشهدٌ كارثي..
على الرغم من اعتياده هذه المشاهد، أحسَّ بأن شيئًا ما يقبض على دقّاته، وبينما يضع يده المرتجفة على قلبه، وقعت عيناه على فردة حذاء يعرفها.. ثم على حقيبة ممزّقة مصبوغة بالدم.. لم يكن يعنيه ما يدور حوله من هلع وأصوات ضجيج.. احتضن الحقيبة بكل دمائها كمن يريد إسعاف مصاب.. ثم بحركة هستيرية غير واعية ركض باتجاه اليمين وأمسك بيده، وهناك في الشمال أمسك بقدمه.. نعم هذه ذراعه، وتلك قدمه، وهذه رأسه، لملم أشلاء صديقه ثم أخذ يحدّثه معاتبًا:
ألم تعدني بأن نذهب اليوم، بعد انتهاء المدرسة إلى بستان العم صالح لنلعب؟ لقد حنثت بوعدك معي.. لن ألعب معك ثانية.

مرتجفًا حدَّث سمير رفاقه المتحلقين حوله عن حزنه وهلعه، وعمّا جرى له، وحين دخل المعلم.. وقف سمير وعيون التلاميذ معلقة به، وراح يتوسّل المعلم أن يسمح له بتنفيذ وصية رفيقه عامر الذي لم

يتمكّن من الحضور، اندهش المعلّم ورثى لحاله، فنزل على رغبته ولم يقل سوى: تفضّل يا سمير.

وقف سمير أمام السبورة معطيًا ظهره للتلاميذ.. ومضى ينقل بالطبشور وبيد مرتجفة، من دفتر عامر العبارة الآتية:

لا حق للطفل في وطني سوى الموت بقذيفة، وهو ذاهب إلى المدرسة أو تحت سقف يقع عليه وهو نائم.

خدعة

أكثر من مئتين يمشون ليعبروا هذه الغابة، فيدخلوا البلد الأوروبي الإنساني متجاوزين حدودها بعد سير على الأقدام دام ثلاثة أيام.

أكثر من مئتين من كل الأجناس والأعمار والأطياف، طالبوا مَن يقودهم في هذه الرحلة (المهرّب) أن يمكثوا لبضع الوقت، فقد تورّمت أقدامهم وسالت الدماء منها.

وافق الرجل على استراحة مدتها نصف ساعة فقط.

أحمد عبد القادر عبد العزيز جلس والعرق يتصبب منه سيولاً، والتعب قد تمكّن منه وهو ابن الثلاثين، حاله كحال القافلة بأسرها.

اختار أن يسافر بحثًا عن الإنسانية التي ضاعت في بلده بين الجثث المتكدسة المتعفّنة، وبين موت الضمير والرياء، اختار أن يحيا إنسانيته، طالبًا من السموات العتيدة أن يعود الأمن والأمان لبلده.

لاحظ الرجل طفلين يتشاجران يعنفٍ من أجل كرة، كل واحد يريدها له، أمسك بها أحدهما، مرّر عليها الآخر مشرطًا حادًّا، بسرعة البرق لتغدو قطعةً بلاستيكيةً لا هواء فيها.

شعر بحزن شديد فكلاهما خسر الكرة ولم يلعبا، تمامًا كما فعل هو وابن عمّه النزق يوم كانا يافعين، عندما جلبت لهما والدته كوبين من الشاي، فأخذ ابن عمه يمازحه عن ابنة الجيران ريم التي كان يحبّها، فأمسك كوب الشاي ليرميه أرضًا، فما كان من ابن عمه إلا أن بصق في الكوب الآخر.

ابتسم بسخرية قائلاً لنفسه: كلانا يومها لم يشرب الشاي.

كان أبو خالد يجلس قريبًا منه، وشجار طفيف مع زوجته ينمّ عن تعبها واستيائها من الرحلة الشاقّة.

عاد بذاكرته، يوم صحا من نومه على صوت صراخ والدته من ضرب والده لها، يومها خرجت من البيت بقميص نومها.

يومها كانت السماء غزيرة الأمطار، غضبا من زوج خرجت زوجته هربًا من ضربه وشتمه لها.

طفر دمعه بأنين تمتم لنفسه: أين أنتِ يا أماه؟

تابعت القافلة المسير.. اقتربت من الوصول، ابتسامة على ثغره، أخيرًا سيحيا إنسانيته، سيحظى باحترام الجميع، فقط لأنه إنسان، سيحيا الصدق بعيدًا عمّا عاشه من خداع رزين وكذب أسود.

- رجاءً، الجميع يقف ضمن طابور مرتّب للإدلاء بما يهمّهم من بياناتكم الشخصية، للحصول على بطاقة تعرّف عليكم.

بينما هو واقف في الطابور، بانتظار دوره، شغله أمر يخصّ اسمه. أحمد عبد القادر عبد العزيز، إنه اسم مركب طويل كان أصدقاؤه في المدرسة يمازحونه قائلين: هذا اسمك الخماسي وليس الثلاثي.

و الآن ماذا سيقول لهم؟ هل يكتفي بـأحمد أو يقول لهم عبد العزيز، أم عبد القادر؟

وصل دوره، سئل عن اسمه فأجاب: أحمد عبد العزيز (نعم هذا يكفي) هكذا قال لنفسه.

كتب الرجل بطاقة وأعطاها له، أخذها ومشى والفرح يغمره، نظر إلى البطاقة فشاهد بجانب الاسم.. خمسمائةٍ وخمسًا وخمسين.

ومن بعيد كانت الطفلة أحلام، تمسك بطرف ثوب أمها تنظر إليه وتبتسم.

لا تعليق

دويٌّ صفارات الشرطة يثير ضجيجًا أثار فضولي لأخرج، وأنظر من شرفة منزلي وكم دُهشت لما وجدت!! هذا الشارِع الحزين.. المغلق من كلّ منافذه منذ أكثر من أربع سنوات.. أرى فيه موكبًا رسميًا من محافظ المدينة إلى قائد الشرطة وعناصره. وهاهو المذيع هادي مع فريقه الإعلامي من المصورين!!

هذا المشهد أثار فضولي.. ما الذي يحدث؟ على الشرفة المحاذية لي تقف جارتي أم حسام..

- أم حسام.. ما الأمر؟
- سيفتحون منافذ شارعنا، وستعبر السيارات، سيعود شارعنا كما كان.

- لكن كيف؟! والحواجز؟! وأكياس الرمل؟! الحافلات الكبيرة؟! كيف؟! ما معنى ذلك؟!
- افرحي ياعزيزتي، أبو حسام يقول لي: "إن هذا مؤّشر جيد لأنّه يعني أن الأمور بدأت تسير على ما يرام، وأنّ الوضع تحت السيطرة"

شعرت بقشعريرة سَرَت بجسدي، ولم أدرِ هل هي قشعريرة فرح حقًا، أم ماذا؟ المذيع هادي يجري مقابلات، ويسأل الناس بحماس وفرح، فرح الانتصار.

- ما رأيك أخي المواطن بهذا الحدث العظيم؟
- نحن سعداء للغاية بعودة شارعنا إلى وضعه الطبيعي.
- ماذا تريد أن تقول بنهاية هذا اللقاء؟
- أريد أن أتوّجه بالشكر لكل من ساهم بحمايتنا، وعمل المستحيل كي يُعاد فتح شارعنا، فهذا دليلٌ على أنّ الأمن والأمان قائمان وأن الوضع تحت السيطرة.

الرجال والنساء والشبّان يهتفون فرحًا بعودة شارعهم، صوت دوّى من بعيد هزّ الأرض.. دخان أسود كثيف أكل السماء وغيومها، دخلت من الشرفة خوفًا ورعبًا.

لقد رمى الإرهابيون صاروخًا هناك، في ذلك الشارع الذي يلي شارعنا تمامًا.

في شريط الأخبار مساءً.. استشهاد شابة في العشرين من عمرها، ورجل وثلاثة أطفال كانوا يلعبون في شرفة منزلهم.

سوء فهم

جلس في مكتبه..

- القهوة سيدي

أشار بيده للعسكري أن يخرج وتابع حديثه على الهاتف:

- نعم نعم سيّدي لا داعي للقلق، أرجو إبلاغ القيادة بأن الأمور على ما يرام، إلى اللقاء.

يرتشف فنجان قهوته والتعب قد أخذ منه الكثير.. تذكر أم وسيم وأولاده.. لم يرهم منذ ثلاثة أيام، الليلة سيعود إلى البيت لينام في سريره، كم اشتاق لزوجته وأولاده.

جرس الهاتف يرنّ: نعم.

صوت يعرفه.. نعم.. هو صديقه أبو فهد.. صوته يمازحه:

- أبو وسيم الغالي
- أهلاً أهلاً.. كيف حالك؟ أين أنت؟
- الآن وصلت من السفر، اسمع أنا في المطار، تعال وخذني، اشتقت إليك كثيرًا، فوالله ما جئت إلا لرؤيتك.
- حسنًا، نصف ساعة وأصل إليك.

نهض ليخرج من مكتبه، شعر بثقل، التعب قد نال منه.. ضغط على زر الجرس بجانب طاولة مكتبه، فتح الباب.

- أمرك سيدي
- خذوا سيارة واتجهوا فورًا للمطار، ستجدون رجلاً يدعى عادل الصالح الملقّب بأبي فهد، أريدكم أن تأتوا به إلى هنا.
- أمرك سيدي

تابع أبو وسيم شرب فنجان قهوته، أغمض عينيه.. وخلد لنوم عميق، لم يستيقظ منه إلا على صوت مكتبه يُفتح وعلى رجلٍ يلقى به أرضًا، وارتفع صوت عنصر يقول: جئنا به سيدي.. ها هو.

وقف أبو وسيم ينظر، الرجل مرمي على الأرض وسترته ممزقة.

تقدم ليتفحّصه، وكم فوجئ عندما رآه.. إنه أبو فهد.

- لعنة الله عليكم.. ماذا فعلتم ولماذا؟
- أنت قلت لنا سيدي: تريد أن نأتي به إليك

- إنه صديقي.. لماذا فعلتم به كل هذا؟

- سيدي، رفض المجيء.. فجئنا به عنوةً لأنك أمرتنا بذلك

نظر أبو فهد لصديقه قائلاً: لعنة الله عليك وعليهم

احتار أبو وسيم ماذا يفعل.. ماذا يقول؟

أمر عناصره بالخروج، احتضن صديقه وضحكا بشدّة.

هجرة

كل صديقاتي قد هاجرن مع أهاليهن إلى أوروبا وأميركا وارتحن من ويلات الحرب إلا نحن، أكثرهنّ حصلن على منح دراسية إلاّ أنا، لماذا؟ لماذا إلاّ أنا؟

بتذمرٍ ونزقٍ كانت باولا تسأل والديها بغضبٍ وانفعال أثناء تناولهم العشاء.

فجأة الملاعق تصطدم بالأطباق، الكؤوس تترنح وتقع، طاولة الطعام تهتزّ بقوّة، جميع الأواني تسقط من على الرفوف، صرخات متباينة الخوف والدهشة تنطلق من حناجر أفراد العائلة ثم هدأت الحركة.. وسكن كل شيء.

يقول الأب: هزّة أرضيّة، حقًا كانت قوية مرعبة ثم يشغّل الأب التلفاز لعلّه يعثر على خبر عن الهزّة وما قوَّتها وإلى أين امتدَّت؟

عاجل وعلى جميع القنوات: تم الاعتداء على كوكب الأرض من سكان كوكب مجهول أكبر منه أضعاف المرّات، فألقوا شبكة أحاطت به، ونقلوه بعد ذلك إلى أعلى قمَّة جبل عندهم.

الصدمة شلّت العقل والجسم؛ فقد كانت أكبر من أي ردة فعل من أفراد العائلة، فجأة علت ضحكة رنّانة من باولا، سألتها والدتها بامتعاض ودهشة بعد أن أطفأت التلفاز: هل جننت؟ ألا تقدِّرين حجم الكارثة المحيطة بنا؟

بصوت منتشٍ، وضحكة مدلّلة أجابت باولا: لقد تحقّق حلمي! كم صلّيت وتضّرعت إلى الله ليساعدني على الحصول على منحة دراسية أسافر من خلالها، كم أرعبتني القذائف والدمار والدماء والأشلاء! كم شاهدت الموت يأخذ ويأخذ ويأخذ! كم كنت أتمنى أن أسافر، أهاجر! كيف لا أضحك ولا أشعر بالسعادة وقد منحني الله أكثر مما أستحق.

بينما كنت أحلم بالسفر إلى أوروبا أو أميركا، أتيح لي أن أسافر إلى كوكب آخر، أخيرًا هاجرت، سافرت.

يمسك أخوها الصغير بجزرة وقعت على الأرض لينظر إليها، فلطالما أحبّ لون الجزر البرتقالي.
بغضب وحزن تجيبها أمهّا: أي سفر هذا الذي تتحدّثين عنه؟ أنت ما تزالين هنا في بيتك، أما سمعت؟ أما فهمت؟ لقد تمّ نقل كوكبنا بأكمله كما هو، ونحن الآن على رأس جبل في كوكب آخر عملاق لا نعرف عنه شيئًا.
كمن لسعه عقرب، باولا تقفز، تصرخ، تبكي بألم تقول: أرجوك لا تقتلي حلمي، ها نحن استرحنا من الحرب وويلاتها قولي إننا سنمارس رياضتنا الصباحية في تلك الحدائق، قولي إنني سأتابع دراستي وأسعى لتحقيق أحلامي.
شقيقها الصغير يلعب بالجزرة ثم يرميها، ويتكوَّر في الزاوية على الكنبة.
الأب - وبصمت مؤلم - يبتلع دمعته على أحلام ابنته التي تتكسّر أمامه ولا يستطيع لملمتها.

يشعل التلفاز مرة ثانية ربما.. لعلّ..

تتناقل كل قنوات العالم: " الرجاء من الجميع التصرف بحكمة والتحرك بهدوء والابتعاد عن الصراخ والانفعالات، فكوكبنا على رأس جبل ربما يتدحرج".

توقفت باولا عن القفز، وخنقت غضبها، وابتلعت صراخها وأحلامها، جلست على كرسيّها حول مائدة العشاء لتكمل تناول آلامها. فجأة ضحكت بقهر.. لقد تدحرجت كل القيم والمعاني. سرحت بخيالها.. فلم تتوقّع في يوم أنها ستكون صيدًا في شبكة فيها كل هذا الحشد لتموت بمقبرة جماعية متدحرجة.

غيمة

انتشلتني غيمة لأتوسّدها، وهي تتنقّل بي بجولة على ضفاف سوريّتي الجميلة.

أغمضت عينيّ بانتشاء، أمدّ يدي، لأداعب النجوم وأغازلها، ابتسم لها بسعادة، قبّلت القمر الذي نشر خيوط أنواره على جسدي وغيمتي، إلى أن أشرقت الشمس بأشعتها، لأفتح عينيّ بانزعاج فأطالبها بالرحيل، إلا أنها تأبى وتقول:

- جبانة أنتِ، اختبأت في فضائنا هذا.. عودي إلى أرضك.
- لن أعود إلى الأرض. لن أعود إلى حيث القذائف والقتل والدمار.. لن أعود إلى حيث الطفولة المبتورة، لن أعود إلى حيث الموت والسواد.

فجأة شعرت باختلال توازن غيمتي.
هي هشّة، لا تستطيع أن تحملني، فقط تحوّلت إلى قطرات مطر صيفيّة، هوى جسدي كقطرة من قطراتها، على غصن شجرة، تمسّكت به واختبأت خلف أوراقه، لخوفٍ غلف شراييني، فأصوات القذائف قد ملأت المكان.. حلّقت العصافير حولي مغرّدة، لتعلن فرحها بمجيء زائرة جديدة، أحد صغار العصافير أبدى استياء من تلك الأصوات المزعجة التي تدوي وتنحدر نحو الأسفل في الفراغ، هي أصوات مخيفة، فماذا تكون؟
عصفور جميل كبير يتحدّث بتغريدة وقورة قائلا: لا تخافوا يا أحبائي.. الأصوات القادمة من بعيد وتستمعون إليها.. هي أصوات طيور تغرّد مثلنا.. لكن يبدو أنها قد جاءت من قارات أخرى غريبة عنا، لا تقلقوا، سوف نعتاد على سماع تغريدها شبه المتصل.
ابتسمت بحزن لظنّها أنها أصوات طيور تغرّد... لم يفهموا أنها الحرب.
لثم النعاس عيني، فتراخت ذراعاي ووقعت على أرض انتعش فؤادي لرائحتها..
بحثت عن غيمتي فلم أجدها..

حملني ذاك العصفور الوقور على جناحيه إلى سريري لأحتضن وسادتي فأغفو على أمل أن أصحو وتكون الحرب قد انتهت، وعادت العصافير تغرّد بفرح.

العابر

سار في هذه المدينة، وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه، طوابير من الناس في مناطق عدة، اقترب وسأل رجلا عجوز: يا عم، ماذا تفعل أنت في هذا الزحام؟
نظر العجوز إليه نظرة ملؤها العتب وأجابه: أنتظر دوري لأحصل على نصيبي من الخبز.

تابع العابر سيره إلى اليمين، شاهد طابورًا ثانيًا أكثر ازدحامًا من السابق، اقترب ليسأل امرأة شابة جميلة: ماذا تفعلين في هذا الطابور يا سيدتي؟
نظرت إليه باستغراب وكأنه غبي، ثم أجابت: ألا ترى أسطوانات الغاز معي ومع كل هؤلاء؟

بحيرة أكمل سيره، فوجد طابورًا ثالثًا مكتظًا بالفتيات والرجال والنساء والأطفال.

اقترب من طفلٍ لا يتجاوز العاشرة وسأله: ماذا تفعل يا بني؟

نظر الطفل بحيرة وأجاب: أنا ووالدتي ننتظر دورنا للحصول على البنزين، وفي هذا الطابور هناك أخي وأبي ينتظران دورهما للحصول على المازوت وهناك وإلى الأمام تجد جدتي وأختي تنتظران دورهما للحصول على المياه.

ألم اعتصر قلب ذاك العابر واقترب أكثر من الطفل ليحتضنه بحنان وشفقة، فانتبه إلى أنه في آخر الرصيف يوجد طابور طويل من مختلف الأعمار.

سأل الطفل: وذلك الطابور؟ لم تشر إليه، ولم تخبرني ماذا ينتظرون؟

أجابه الطفل: لا أعلم.

قرر العابر أن يذهب ليعرف ماذا ينتظر هؤلاء أيضًا.

عندما اقترب من هذا الطابور، أخذ يتفحص وجوه الواقفين. دُهش لما رأى من خليط عجيب؛ هذه عجوز وذاك شاب، هذا شيخ مسجد وذاك كاهن، هذه امرأة محجّبة وتلك سافرة، صغار، كبار، كلّهم واقفون ينتظرون.

اقترب العابر، وسأل شابًّا في ريعان شبابه: ماذا تنتظرون هنا؟
توجهت كل العيون إليه، عيون ممتلئة بالألم لما حلّ ويحلّ. أجابه الشّاب:

- هذا طابور الموت.
- الموت؟
- نعم، نعم، كلنا كما ترى ننتظر مجيئه من حيث لا ندري، عبر قذيفة هاون، صاروخ، رصاصة طائشة، رصاصة قناص، شظيّة، تعدّدت الطّرق والأساليب والموت واحد.

تابع سيره وهو ينظر إلى السماء، ليجد غيمة كبيرة تكاد تنجلي: هذه هي الحياة، نقف فيها بطوابير مختلفة كي نعيش أو ننتظر الموت.

صمت

أنظر إلى الأوراق فأجدها أرضًا خصبة، تشتاق إلى مطر الحروف، حروفي ماطرة غزيرة، تصرُّ على أن تروي حكايتها، تراني أُخاتلها لأقنعها بالتراجع، لكنها تجيب بعناد وجبروت: هل يهمّ مدينة الحزن إذا فتح فيها شارع جديد للبكاء؟

حاولت أن أجني لها من حقول شقائي كل الورود، لأخفف عنها، لكنها تتمسك بإصرار لتبوح بأنها كتلة من رماد متعب، يرتشف جرحًا ظلّ ينزف بها، أمام إصرارها أعلنت استسلامي وأصغيت لبوحها:

إنه شوكة تأمل أن تتفتّح براعم،
إنه الوتر الأروع من أغنيات حزنها النبيل،

إنه يكوي صمتها بشغف القلب، ووجع اللهيب.

وغابت في عالم صمت عميق، عندها أدركت أنها عاشقة حدّ الجنون.

تفتح نافذة غرفتها المطلّة على حديقتها فاخترق عينها شعاع الشمّس لتلتفت بالاتجاه المعاكس فترى غصنًا جميلاً عليه وردة كانت قد ذبلت.

حلم

لم تنسَ فريال حديثها صباح أمس، مع صديقتها ريما حول ما يريده أولئك المسلحون الذين يقتلون ويدمرون، تساءلت ريما بقهر وألم، عن سبب قتلهم الأطفال الذين لا يبحثون عن ذهب أسود، ولا عن أوراق خضراء، هم فقط يبحثون عن مكان يختبئون فيه، ليلعبوا كعصافير ترقص فوق الأزهار، على موسيقا حفيف أوراق الأشجار، مع ضحكات متألقة، ينثرونها هنا وهناك ببراءة مدهشة.

صوت قذيفة دوى في الشارع، ليتهشم زجاج المنزل، كسهمٍ نافذ، تجري الأم إلى غرفة ابنها حبيب لتراه مستيقظًا والرعب في عينيه، تحتضنه بقوة بينما هو يرتعش خوفًا.

استعادت تفاصيل كابوسها الذي صحت عليه منذ قليل، حيث كانت تقف من بعيد، لتشاهد ذاك الزائر المقبل باتجاه طفلها، ذاك الزائر

الموشى بأزاهير العوسج، مدّ الزائر يده، واحتضن الطفل، وغابا في الفراغ، حركة مجنونة في السرير، تكاد تختنق، يد زوجها توقظها، جحظت عيناها وصرخت: حبيب، ابني، لقد أخذه معه.

- اهدئي حبيبتي، إنه كابوس، سمّ بالله.

زوجها يقدم لهما كوب ماء ليهدّئ من روعهما: اهدأ يا حبيب، بعد قليل يحين موعد مدرستك، فريال الشقراء، الحسناء، تمشي ممتشقة طولها مع ابنها الذي بلغ سنواته الست.

قلق يساورها لسؤال يلحّ عليها: لماذا وُلِد ابني والمرض حليفه؟

لكن لإيمانها الشديد تقول: إنها إرادة الله الذي لا يقدِّم إلاّ الخير.

تمسك بيد ابنها، وهي تضغط عليها برفق وحنان، نسمة ربيعية تداعب شعرها، والشمس تبتسم لها وسط دمار ما فعله المسلحون بهذه المدينة.

فجأة يقف حبيب ليسألها ببراءة: لمَ لا نستطيع أن نحقق كل أحلامنا يا أميّ؟

ابتسمت الأمّ بحب وأجابته وهي في سرّها تدرك كم يحب الشوكولاتة: قل لي ما هي أحلامك، وثق بأنّني سأحققّها لك حالا؟

بابتسامة الواثق بأن والدته ستحقّق له حلمه أجابها: أحلم بأن تنتهي الحرب ويغادرني المرض.

قرع جرس المدرسة، لقد وصلا، دخل حبيب مسرعا إلى مدرسته ليلحق بالطابور.

مسؤول

دعا اللهَ كثيرًا أن يرزقه مولودًا ذكرًا، لأنه يحب بناته الأربعة حبًّا لا حبَّ بعده، وأراد أن يكون لهن سندًا ليمنع عنهنَّ غدرَ الزمان - هكذا ظنت زوجته - وقد مَنَّ الله عليه واستجاب لدعوته.

ما خرجتْ مرةً من غرفة وليدها ووالده عنده إلا وبكى بكاءً غريبًا، ذات جلسةٍ قاسيةِ البكاء وقعت عيناها من خلال النافذة على مشهد مريع فهرعت إلى غرفة الرضيع بينما سبابتا والده ما زالتا في فمه الصغير يشدانه باتجاهين متعاكسين.

كدجاجة تعرَّض فراخها لخطر داهم قبضت على يديه بقوة، وأبعدتهما عن فمه ثم أخدت صغيرها في أحضانها وألقمته ثديها، ابتسم الأب؛ ليطمئن زوجته، ويشعرها بأنه لا يريد لولده الشر ثم قال: كانت هذه الجلسة هي الأخيرة.

قاطعته بغضب: جلسة ماذا؟ هل جرى لعقلك شيء؟!

أجابها بهدوء: جلسة تكبير فمه لأضمن مستقبله.

- ما علاقة تكبير فمه بمستقبله؟

تتساءل مستنكرة، وهي تهشُّ الذباب عن خدِّ الصغير، ويردُّ عليها بثقةِ العارفِ: الفم الكبير صفة لا بد منها بل أساسية ودونها لن يصير ولدك مسؤولاً مدى الحياة.

الشرفاء

سألته صاحبته بخبث: لماذا تستمتع بخيانة زوجتك يا خالد؟
لم يُجِب بل أطلق تنهيدة طويلة عبَّر من خلالها عن السبب، ولبس ثيابه وانصرف.

زوجته التي كانت في سريرها، ولم تنم بعد، سألته عن سبب تأخره وعن أسباب الانزعاج البادي عليه فأطلق آهةً ولم يجب، ولما ألحّت عليه رد عليها بلغة متألمة: لقد تنازعت مع صديقي إبراهيم.
فالتفتت إليه لتعرف سبب النزاع: لقد كنتما سمنًا على عسل فما الذي حصل؟

شدّ خالد في نبرته ما استطاع من الشرف، وهو يقول متباكيًا: علمتُ من فترة بأنه يخون زوجته، فبذلت كل ما لديّ من جهدٍ وصبرت عليه كثيرًا محاولًا إقناعه بالتراجع عن ذلك، ونصحته مرارًا بالتوبة قبل فوات الأوان إلا أنني لم أُفلح، فأنهيتُ علاقتنا وتركته، ولن أعود لصحبته.

صديقه إبراهيم كان موظفًا، فجأة بدأت الحارة التي يسكنها تشم روائح النعمة في بيته، وهو لم يخبر أحدًا حتى زوجته بأنه أصبح رئيسًا للجنة المشتريات.

وما إن يجلس إبراهيم على كرسيه في المقهى، حتى يسحب السبحة الطويلة ذات الحبات المائة، ويديرها بين أصابعه، ولسانُه يلهجُ بالتسبيحِ والاستغفار، أما إن تحدَّث، فبألمٍ عن الشركة الفلانية التي سرقها المدير الفلاني أو المؤسسة العلانية التي اختلس منها المسؤول العلاني.

يختلف مع صديقه خالد في كل شيء أثناء الحوار إلا في الدولة المعادية المتآمرة على بلدهما، فهما متفقان على أن كل البلاء الذي يحلّ بالبلد سببه الوحيد هو تآمر هذه الدولة التي استباحت الأقصى، وهجّرت الأشقاء الفلسطينيين، وقتلتهم، وما تزال تُمعن في جرائمها، ومتفقان

أيضًا على أن كل من يتعامل مع هذه الدولة أو يثني عليها أو في قلبه شيء من الرضا عليها فهو خائن لأمته وشعبه.

ازداد الاقتتال والحالة لم تعد تطاق، وانعدم الأمن في الحياة فلم يكن أمامهما سوى الفرار من البلد، وكانت تركيا هي المكان الأقرب لهما، ففرّا بعائلتيهما إلى الأراضي التركية ولم يتمكنا من العيش في مخيم واحد فافترقا.

كان إبراهيم يسير على الرصيف في الشارع الذي تقع فيه سفارة الدولة المعادية، وبخطوات مضطربة خشية أن يراه أحد وهو يقبض على جواز سفره بقوة، بلغ باب السفارة مطمئنًا حيث لم يره من يعرفه، وبينما هو يحاور موظف الاستعلامات ليفهم منه كيف ولمن يسلم جوازه مع طلب اللجوء، فتح الباب ليكون الخارج منه صديقه خالد.

تشابه

بتواضعٍ وابتسامةٍ جلسَ، والكلُّ يُرَحِّبُ بهِ، الكُلُّ سعيدٌ لحضورِهِ ولقُبولِهِ المشاركةَ بإحياءِ هذه الأُمسيةِ الشعريّةِ، وهوَ المُقِلُّ بمشاركاتهِ.

رئيسُ المركز الثّقافيّ، يطلبُ من أبي محمودٍ أن يجلبَ القهوةَ لجميعِ الحاضرين، ويلتفتُ إلى ضيفِه الشّاعرِ نِضال مرحّبًا: أهلا بشاعرِنا، أستاذنا نضال، نشربُ القهوةَ إلى أن يحينَ الموعدَ، جمهورُكَ الذّي تستحقّهُ كادَ أن يملأَ القاعةَ، والتفَتَ إلى الضّيوفِ متابعًا: الأستاذُ نضال كما عرفناهُ في بداياتِه لم يتغيّرْ بالرّغمِ منَ الشّهرَةِ، وإصداراتِهِ العديدةِ، التي نالَتْ نجاحًا باهرًا.. ما زالَ يتَّسِمُ بتواضعِه وخجَلِه أمام كلِّ مديحٍ.

تابعَ رئيسُ المركزِ: أنا متأكِّدٌ بأنَّها ستكونُ أمسيةً مميّزةً جدًا.
وضعَ الأستاذُ نضال الغلاف الذّي أودعَ فيهِ قصائدَهُ على طاولةٍ صغيرةٍ كانت بجانبهِ، وتناولَ فنجانَهُ، وارتشَفَ منهُ رشفةً، وراحَ يردُّ على مدائحِ وترحيبِ رئيسِ المركزِ قائلًا: يسعدُني ما أنا فيه، فمحبّتكُم ومحبّةُ الجمهورِ لشعري لا تُقدَّرُ بثمنٍ، لقد انتقَيْتُ لهذه الأمسيّةِ نصوصًا جديدةً سأقرؤُها لأوّلِ مرَّةٍ، أرجو أن تنالَ إعجابَكُمْ.
فُتِحَ بابُ المكتّبِ ليقولَ أحَدُهم: الوقتُ قدْ حانَ يا أستاذ.. فلتتفَضَّلوا، والقاعةُ قد امتلَأَتْ.
بامتنانٍ فائقٍ، شكرَ الأُستاذُ نضالَ رئيسَ المركزِ، وشكرَ الجّمهورَ الذّي صفَّقَ لهُ بحفاوةٍ بالغةٍ، ثمَّ فتحَ غلافهُ، وأخرَجَ أوراقَهُ ليضعها بين يديهِ، وعيونُ الجّمهورِ على أشدِّ ما يكونُ من حرارةِ الترقُّبِ، وضعَ الأستاذُ نضالُ مرفقَيهِ على الطّاولةِ، ثُمَّ وَضَعَ رأسَهُ بينَ كفَّيهِ، وجمّدَ عينيه على أوراقِهِ، بعدما كانَ معتدِلَ الظّهرِ، مرّت برهةٌ من الصّمتِ، ظنَّ الكثيرون خلالها أنَّ الأستاذَ قد نسيَ نظّارتَهُ في البيتِ، وما أن امتقَعَ وجهُ الأستاذِ، حتّى بدأ القراءةِ وهوَ مُكِبٌّ بوجههِ على أوراقِهِ، كتلميذٍ يقرأُ وظيفةً أمام أستاذهِ، بعدَ الجملةِ الخامسةِ أمطَرَهُ الجّمهورُ

بالتصفيقِ، كادَ يغُصُّ بريقَهُ وهو يتساءلُ: "هل يصفِّقُ هؤلاء مُستمتعين أم ساخرين؟".

تابعَ القراءةَ وليسَ لديهِ جرأةٌ ليرفَعَ عينيهِ، ولو مرة واحدة إلى عيونِ الجّمهورِ.

أمواجِ التّصفيقِ تنهال، والأستاذُ الشّاعرُ تزدادُ غصَّتُه وحشرجاتُهُ بصوتِه الّذي كاد يتقطّعُ، تحتَ سياطِ التّصفيقِ اللاذعةِ، أنهى قراءةَ الورقةِ الرَّابعةِ، وبعدما تلاشى ضجيجُ الصّفقةِ الأخيرةِ، وَضَعَ يديهِ على أوراقِهِ، ورفعَ رأسَهُ، واعتدلَ في جلستِهِ، ثمَّ قالَ مُخاطِباً جمهورَهُ: لقد أسعدَني إعجابُكم بما قرأتُ، ولهذا يطيبُ لي أن أقدِّمَ التّهاني لتلميذي؛ فما قرأته من مجموعةِ قصصٍ كان قد أرسلها إليَّ لأطلعَ عليها، وقد أحضرتها خطأً بسبب تشابه الغلافين.. !!

فستان سهرة

-

جرس الهاتف يرن..

- آلو.. أهلا حبيبتي..
- أهلا أهلا صديقتي، أذكرّك بحفلة عيد ميلادي الليلة.. الكل موجود ستكون حفلة مميزة بوجودك.. أنتظرك.
- بالتأكيد غاليتي.. إلى اللقاء مساءً.

سألت نفسي ماذا سأرتدي؟!

اتجهت إلى خزانة ملابسي...

فتحتها..

وكم كانت ممتلئة!

نظرت إلى فساتين السهرة

ها هو فستاني الأسود الجميل بوردته البنفسجية... كم هو رائع....
لكن لا، لا...
أشعر بأنني مقيدة كلما ارتديته
آه ربما هذا الفستان هو الأجمل بلونه الوردي الجميل وياقته التي تضفي على أنوثتي أنوثة أخرى..
حسنا سأرتدي هذا الفستان..
لا.. لا.. فله ذكرى مؤلمة.. إنه يوجعني، ففي تلك الحفلة كنت أختال به كفراشة نحو فارس أحلامي الذي طعنني فجأة بخنجر الفراق.
كم بكيت يومها..
يا إلهي ما أجمل هذا الفستان الأحمر الطويل..
سيزيد من جمال قوامي جمالاً بشاله الأسود الرائع...
لا.. لا..
فكلما ارتديته، شعرت بغيرة كل نساء الحفل، ثم هذه حفلة صديقتي ولا أريد أن أطغى عليها.. ليس هذا غرورًا، بل هو ما يحدث دائمًا..
أمر على الفساتين الكثيرة الجميلة..
كيف لا؟ وأنا التي اشتريتها من مختلف دور الأزياء العالمية.
فجأة وصلني صوت أمي تسألني بدهشة عن سر وقوفي الطويل أمام خزانة الملابس.

- أنا مدعوة لحفلة عشاء صديقتي ولا أعلم ما الذي أرتديه.

ترقرقت دمعتان في مقلة أمي بألم وعجز : سامحيني يا حبيبتي، فلم أستطع أن أشتري لك أي ثوب منذ سنين، وأنت تعرفين ظروفنا الصعبة.. أعلم أنك مللت من هذا البنطال وهذا القميص؛ فقد اشتريتهما لك من محل أبي وضاح بائع الملابس المستعملة، ومنذ ذلك اليوم لم أستطع أن أشتري لك أي شيء.

ربتّ على كتفها وضممتها بحب وحنان: لا عليك أماه.. لا عليك

لبست البنطال الجينز العريض بجيوبه البارزة مع القميص الوردي وحذاء رياضي وذهبت إلى حفلة صديقتي...

فوجدت كل صديقاتي يلبسن لباسا مشابهًا لما أرتديه، ويقلن مثلي: أنا أحب اللبس الإسبور.

ابتسمت بيني وبين نفسي...

ترى هل يلبسن الإسبور حبًّا فيه أم لأن فساتين السهرة لا توجد في دكان أبي وضاح؟!!

لقاء

لو تعلم كم أنفقت من العمر لرعاية هذا الحلم.. الحلم الذي زرعته في حقول الخيال، ورويته من العشق والجنون، ما جعل ثماره تنضج بالواقع الذي سأضمه بعد ساعات قليلة، ويتساءل قلبي: هل سيحتمل الفرح والجنون في لحظة لقائنا الأول؟

أيها الحب الذي أنجبته من رحم الخيال، وبات على قاب خطوة لترتدي روحي ألوان دهشته، وتشم أريج لهفته، كل الاحتمالات واردة إلا أن أغمض عيني قبل أن تحتويك، آه، أكاد ألمس حرارة يديك المفعمتين بالشوق والحنان.

- غادة سأضمّك وأصرخ أمام كلّ الناس في المطار، هذه حبيبتي التي كانت صورة على زجاج شاشة وأصبحت جسدا يفيض بتفاح الحياة.

مضيفة الطيران تقول بصوتها الرقيق: حمدًا لله على سلامتكم. تنهض وتمسِّد فستانها الأزرق، وتحمل حقيبتها الصغيرة، تسدل شعرها على ظهرها، ابتسامتها مشعّة، قلبها يكاد يجنّ فرحًا بلقاء الحبيب.

تتسلم حقائبَها.. بخطوات واثقة، وابتسامة مشرقة تسير باتجاه حبيبها الذي ينتظرها بكامل أناقته وعطره الجميل.

اقتربت خطوة واقترب خطوتين.. التقت العيون.. وميض يخبو، هي تشعر بأنه غريب غريب، وهو يتساءل من هذه الشابة؟ كيف يحتضنها؟ وهو لا يعرفها.. ارتبكت الشفاه.. تراجعت الابتسامة.. تصافحا.. تتذكّر أنّها لم تتسلم حقيبة الهدايا...

سيدة القصر

سادَ اللّيلُ بصمتهِ وسكتتْ كلُّ النجومِ والأشجارِ والورودِ، كلٌّ يُلملِمُ آلامهُ وأحلامه، بأمرٍ من سلطانِ النومِ.
رانيا.. سيدةُ هذا القصرِ، حاولت أن تمتثَل أيضًا لأمر السلطانِ في غرفتِها الأسطوريةِ.
في صالة قصرها، وبعد أن خلت من خدم القصر وسيدته، قررّ ضيوف تلك الصالة أن يجتمعوا حول مائدة العشاء.
و أنا بدوري أدعوكم لاختلاس السمع (مع أنها عادة سيئة) أدعوكم لمشاركتي سماع الحديث الذي سيدور بين الضيوف.
أنظر من خلف باب الصالة، الذّي لم يغلق جيدا، فأرى على رأس المائدة رجلا ملأ الشيب رأسه، وإلى يمينهِ عجوزٌ ذاتَ مظهرٍ وقورٍ

محتشمٍ، وإلى يسارهِ رجلٌ متوسّط العمرِ، ثمَّ شابٌّ وفتاةٌ في مُقتَبَلِ العمرِ.

- اسمعوا جيّدًا، رانيا، أو السيّدةُ رانيا كما ينادونَها، هي ابنتي وأنا حزينٌ لِما تعيشُ مِنْ وحدةٍ قاتلةٍ ولكنْ...

قاطعتْ السيّدةُ الوقورةُ: لكنْ ماذا؟ ألستَ أنتَ السببَ؟ ألستَ أنتَ من حرَمَها حبّها وحبيبَها ومن أجلِ ماذا؟ فقط من أجلِ المالِ!!

يتدخّلُ الشّابُ متوسّطُ العمرِ ليقولَ: وهل كانَ من المعقولِ يا أمّي أن تتزوّجَ أختي من عاملٍ فقيرٍ يعملُ في مزرعتِنا!

يأتي صوتُ الفتاةِ المراهقةِ لتقولَ: ما أشقاني، لو كنتُ في سنٍّ أكبرَ، لكنتُ نصحتُها بأن تتخلّى عن كلِّ أموالِ الدّنيا من أجل حبها.

وبصوتٍ ذي بحّةٍ ساخرةٍ، يقولُ الشّابُّ المراهقُ: كم أنا حزينٌ لأجلِ أختي الكبيرةِ رانيا؟!

عَلَتِ الأصواتُ كقصفِ رعدٍ، بينَ موافقٍ ومعترض، وأنا ما زلت أتنصت خلف الباب الغير المغلق.

فجأة سمعت وقع أقدام سيدّة القصر، يبدو أنه قد أصابها أرق، لكن لا أخفي عليكم، كم تمنيت أن تدخل الصالة وتستمع الى الآراء المختلفة حول بقائها وحيدة.

لا ضرر من أن تستمع الى آرائهم، فهم كما فهمت أهلها.

دخلت سيدّة القصر الصالة، لكني لم أسمع شيئا، دفعني فضولي الى النظر من طرف الباب المفتوح المطلّ على الصالة الكبيرة، وكم دهشت، فلا أحد حول مائدة الطعام، لا أحد في الصالة سوى السيدة رانيا.

نظرت اليها، إنّها تعيدُ ترتيبَ إطاراتِ الصورِ المعلّقةِ على الجدارِ بضيق وانزعاجٍ، فهي لا تفهمُ من يحرِّكُ صورةُ والدِها وصورةُ والدتِها المتوفيين من زمن بعيد.

المعطف الأسود

تمشي في الشوارِع، تشاهد واجهات المحلات، تبحث عن معطف أسود، لتخبئّه للعام القادم. كيف لا؟ والتنزيلات وصلت لنصف القيمة.
شيء ما لفت نظرها، شيء سيطر على كل ما حولها، سيطر على واجهات المحلاّت والمطاعم والنوادي، تمشي وهي تتساءل بدهشة: كيف له أن يكتسح الأسواق هكذا؟ من أين جاء بكل هذه القوة حتى يستطيع أن يسيطر على كل ما حوله؟

عادت بذاكرتها لحديثها مع صديقتها بالأمس عن الظروف الاقتصادية الصعبة، فالغلاء فاحش والدخل قليل "و خليها على الله"

المحلات مكتظة بالناس، رجال، نساء بمختلف الأعمار، يطلبونه.. هو شامخ.. قوي.. يعلن عن ذاته.. عن ضرورته.

الباعة يأتون به مهما غلا ثمنه، يزيّنون به واجهات محلاتهم وبه يملؤون رفوفهم.

أكملت سيرها والدهشة تملأ قلبها واستفسار يلحّ على عقلها: ترى.. هل أثبت قوة حضوره، والناس يتهافتون عليه بحكم العادة في هذا اليوم؟ أم لأنه سيّد الكون، سيّد الحياة، سيّد المعاني، سيّد المشاعر؟؟

دخلت هذا المحل فهو لا يبيع إلاّ المعاطف.

- ألا يوجد من هذا المعطف لون أسود؟

- نظر إليها البائع بدهشة، وذهل زبائن المحل، فشعرت بالخجل من نفسها.

- سيدّتي، أنا مندهش لطلبك، في مثل هذا اليوم الجميع يطلبون اللون الأحمر.. هو المسيطر.. هو السيّد.. فاليوم عيد الحب.

ابتسمت بارتباك: أجل أعلم ومن طلب غير ذلك؟

- أظنني سمعتك تريدين اللون الأسود.

- لا .. لا لقد طلبت الأحمر.

ابتسم البائع برضا وتابع الزبائن، فحملت المعطف الأحمر وبصمت خجول سألت نفسها: أين حضوره في حياتها؟

وصلت منزلها، فتحت الباب، وقبل أن تدخل، رائحة جميلة استوقفتها، التفتت لتلقي نظرة على الحديقة وكم ابتهجت عندما وجدت في تلك الزاوية وردة قد تفتحت، كان لونها.. أحمر.

نعوات

نظرت إلى صديقاتها والفرحة تملأ قلبها لتقول: نحن بازدياد مستمر، وهذا يعني أن الحياة لنا والبقاء لنا.

يأتيها صوت صديقتها على يمينها: لكنّا لا نرسم إلا وشم الحزن في قلوب الناس.

تردُّ تلك التي إلى يسارها: صحيح إن وجودنا مؤلم، ومؤسف إلا أنني أشعر بشيء ما يرضي غروري، فيكفينا أن جميع الناس ينظرون إلينا، أليس هذا دليل على أهميتنا وعظمتنا؟

علت أصواتهن، فهنّ كثيرات، واختلفت الآراء حول كل واحدة منهنّ، إلى أن صدر صوت إحداهن والحزن يملأ قلبها لتقول: ما الفائدة من أهميتنا وعظمتنا؟ ما الفائدة ومصيرنا كمصيرهم؟

- لا لا .. هل نموت؟ لا .. نحن لسنا مثلهم.

رجل وزوجته وقفا أمامهن، ونظرا إليهن وأخذا يقرآن: الشهيد الحاج محمود.. الشهيدة السيدة أنطوانيت.

همس لها زوجها: "انظري" وببالغ الأسى قرأ بصوت منخفض: الشهيد الطفل إلياس... الشهيدة الطفلة فاطمة...

لم تستطع زوجته أن تتمالك نفسها وحزنها ودموعها، فوالدة الطفل كانت مدرّسة معها، واستقالت منذ ثلاث سنوات، ووالدة الطفلة التقت بها أكثر من مرة عند صديقتها مريم، وبحركة سريعة مدَّت يدها ومزَّقت الورقتين ورمتها على الرصيف، وتابع الزوجان سيرهما، بينما بقية الأوراق على أطرافها رسمت دمعة لأنها أدركت أنه حتى أوراق النعوات تموت. وقف صديقان أمام النعوات وأخذا يقرآن بكل وجوم وأسف، وقال الواحد للآخر: ما الذي جاء بقطرات المياه على الأوراق مع أن الشمس ساطعة؟

أجابه: ربما هطلت أمطار غيمة صيفية في هذا الشارع.

وبحركة عفوية، مدّ يده ومزّق الأوراق المتبقية على الجدار، وألقاها على الرصيف فبعثرها الهواء.

بعدها بقليل أتى عامل ، نزع ما تبقى، وألصق نعوات جديدة عليها.

اعتذار جلاد

احتضنتها الأرض، ولفّها التراب بهدوء، سكنت ما يسمونه قبرها، واجهت عريّ أحلامها وواقعها بخجل، ما الذي حدث لها؟ كيف وصلت إلى هنا؟

نعم، تذكّرت كيف جاء في موعده، وجلس أمامها يعانق الصمت، تتغمّده براءة داكنة.

بجنون صاخب قالت له: ولا تشح بوجهك عني، واجهني، حدّثني، لكن لا تغلف نفسك بثلوج الصمت التي تقتلني.

نظر إليها ودموع خفية امتلأت في مقلتيه، وبصدق ذو بحّة مكتنزة بالمرارة قال: اعترف بخيانتي لكِ، وأعتذر عن كل ما سبّبته لك من ألم، سامحيني.

شعرت بأنين أوجاعها لخيانته لها، وها هو الآن يعتذر.

عصفور الحب الذي كان يرقص على قيثارة حبّها سقط من على الشجرة، وأضحى في معجزة أحلامها.

حبّها المقدس، تحوّل إلى قُرح معطّرة.

كشجرة باسقة، تركته ومشت بضع خطوات، هوت بعدها على الأرض.

سيارة الإسعاف نقلتها إلى المستشفى، ليقول الطبيب: جلطة دماغية نتيجة صدمة عصبية. البقيّة في حياتكم.

نعم لقد تذكرت كل شيء. الجميع يترحّم عليها، أما هي، فهي غارقة في أنين ذكرياتها في قبرها، تتعلَّم كيف تموت.

في محطة القطار

صافرةُ القطارِ تُعلِنُ عن وصولِهِ، كانت تحمِلُ في يمينِها حقيبةَ يدها، وفي يسارِها تحملُ غادة حقيبةَ سفرها، لتنزلَ من القطارِ، نصفَ ساعةٍ وتصلُ إلى بيتِ خالتِها المُطلِّ على البحرِ.

سارَتْ بينَ زحمةِ المسافرين، تنظر في الوجوه ولا ترى أحدًا ولا تحسُّ بشيء إلّا بثقلِ حقيبتِها سفرِها.

شيءٌ ما أثلجَ خطواتها إلى حدِّ التجمُّدِ، حدِّ التوقُّفِ، نعم، إنَّه عادل، أجل، هو.

عادل الضابط الوسيم ذو النجوم الثلاثة على أكتافهِ، التقَتِ العيون، توقّفَ عادل، رقصَ قلبَهُ طربًا، فرحًا، كمْ أحبّها وعشقها، وإلى الآن. تمرُّ به الليالي متسائلاً عن سببِ رفضها له، وهما العاشقان الحبيبان.

تسمّرَتْ غادة في مكانِها، لطالما تمنّتْ أن تلتقي به، سنوات خمسة لم يمرّ بها ليلة إلا ولامَتْ نفسَهَاَ على سوءِ تصرّفها، لامَتْ نفسَهَاَ لأنّها لم تفهَمْ أنّه فلّاح، ابن الأرض، جاد الطِّباع والمشاعر، لم تفهَمْ وهي الوحيدة المدلّلة لعائلتِها الثريّةِ بأنّه لا مزاحَ في هذه الأمور، حيث وفي لحظةِ نجاحِهما في كليّةِ الحقوقِ وتخرّجهما، استجمَعَ عادل كلّ إحساسه وحبّه ليطلبَ منها الزّواج، وهي تبتسم مدركة ما سيقوله وما سيطلبهُ، لكنّها ضحكَتْ وقالتْ له: آسفة.

كانت تمازحه فهي مجنونةٌ بحُبِّهِ، لكنَّه، انتفَضَ واقفًا ليجيبها: آسِفْ.

ومضى تاركًا إيّاها حتى اختفى.

لم تستوعِب غادة ما حدَث، كانت تمازحَهُ ليسَ إلّا، كيف لا وهي التي تذوبُ فيه عشقًا؟

حاولت الاتصال به مرّات ومرّات، لكن، ما من مجيب، ومن بين زحمةِ المسافرين اقتربَتْ بضعَ خطوات تجاهه، أمّا عادل، فاقتربَ خطوةً واحدةً لينظُرَ إليها بشغفٍ، فآه وألف آه من عشقها الذّي يسكنُ كيانَه حدّ التملّك، لا ينسَ كيف صُدِمَ عندما قالت له: آسفة لا أقبل.. نعم فمن أكون حتى تقبل بي زوجًا، وأنا الفلّاح الفقير وهي الثريّة.

لا ينسَ عادل كيفَ أغلَقَ هاتفَهُ المحمول، كم كان بحاجةٍ لاستجماعِ قوّتِهِ ليواجِهَ خيبَته.

سنوات خمس وهو الضّابط المتفاني في خدمةِ جيشهِ ووطنهِ، ومن بين زحمةِ المسافرين، في هذه المحطة التقى بها، اقتربَ خطوة أخرى، تحرّكَتْ شفاهَه بلا إرادة ونطَقَ باسمها: غادة.

دُهِشَتْ غادة، ألقَتْ حقيبةَ سفرها، وانطلَقَتْ باتجاهه مسرعةً، فتحَتْ ذراعَيها وضمّتْهُ بين جناحيها، كنسرٍ حنونٍ بادلها بالمثل، ولَفَّ ذراعَيه حول خصرها، ليطيرَ بها فرحًا وطارتِ النّجوم من على أكتافه.

عندها توقّفَ المسافرون، توقّفَ القطار، تعطّلَتْ كلّ حركة في هذا العالم، إلّا دهشة العشاق.

طارَ بها فرحًا، حَلّقَ بسعادةٍ أمام عبثيّة شعرها المتناثر على وجهها، صوت زوجته يوقظه: هيا يا أبا مازن، ألم تطلب منّي أن أوقظك باكرًا؟

استيقظَ وبسرعة ارتدى بزّته العسكرية، ونزلّ على عجلٍ من البيتِ ففي هذا الصّباح لديه مهمّة مداهمة خطيرة.

نزلَ على السّلالم بسرعة، وتوقّفَ فجأة لينظرَ إلى النّجومِ على أكتافِهِ، اطمأنَّ، تابع الطريق..

سُكر

قرّر الأصدقاء زيارة صديقهم عادل لتهنئته بزفافه، واجتمعوا على رصيف مقهى أبي خالد الذي اعتادوا على الجلوس عنده، وشرب الشاي ولعب الطاولة.

أخذوا معهم بعض الهدايا، ووصلوا منزل عادل الذي استقبلهم بترحيب كبير، تبادلوا أحاديث الشباب مع الابتسامات الممتزجة بالغمز واللمز.

استأذن عادل أصدقاءه وذهب ليطلب من عروسه تجهيز الشاي، وجدها متعبة فسارِع لدخول المطبخ كي يجهزَ الشاي بكل فرِح، فهو يحبّها، ويخاف عليها من أي تعب، لم يعرف مكان السكر.. ماذا يفعل؟

أصوات الأصدقاء تملأ الغرفة فرحًا بصديقهم العريس الذي جاء حاملاً صينية الشاي: تفضّلوا يا شباب.

كل واحد من الأصدقاء أخذ فنجانه، وقبل أن يشرب أحدهم قال عادل: هناك فنجان واحد دون سكر، من يكون هذا الفنجان من نصيبه فليكتم ذلك لأنه الأقرب إلى قلبي.

كل مَن يشرب، تعلو الابتسامة وجهه.. وتشع عيناه، كيف لا وهو المميز والأقرب إلى العريس الصديق؟

عجوز

جلست العجوز على أريكتها تفرك يديها ببعضهما لعلها تتدفأ من شدة البرد، درجة الحرارة أربعة، وهي تسكن على سطح المبنى في حجرة واحدة تضرب جدرانها الرياح بقوة.

أسنانها تصطك، جسدها يرتجف، ماذا تفعل؟

أسطوانة الغاز عندها فارغة، صرخت وعينيها تتجه إلى السماء مستغيثة، لا شيء يدفئها من تلك العاصفة القطبية التي ألمّت بالبلاد.

الريح تتقافز فوق سطح منزلها وجدرانه، وهي تغطي نفسها بقطعة صوفية، ويدها المكسورة التي بالأمس رفعت عنها الجبس، تنخر عليها وتؤلمها، إنها لا زالت ضعيفة لا تستطيع أن تفعل شيء.

الأمطار والثلوج ترافقها في الهطول والبرد، ينخر عظامها.

رفعت نظرها إلى مغلفات رواياتها في وسط مكتبها، تتوسل إليهم طالبة نجدتهم ولكن دون جدوى.
ذهبت إلى المطبخ، أخرجت صفيحة الزيت الفارغة، فتحتها، وعادت بها إلى الغرفة.
امتدت يدها إلى مغلف الرواية الأولى، أخرجت أوراقه بلطف وبدأت تسحب الأوراق واحدة تلو الأخرى، تشعلها وتضعها في الصفيحة رافعة يديها فوق النار، تطلب الدفء.
لم تشعر بالدفء، مع أن النار تلتهم الأوراق بسرعة.
رويدًا رويدًا بدأت ترتاح.
خفّ ارتعاش شفتيها ويديها، وألم يدها التي كانت مكسورة منذ شهرين.
ابتسمت وهي تسحب غلاف آخر لرواية أخرى تطعمه للنار، كي تشعر بالدفء، تذكرت سنين عمرها وهي تكتب،
كل رواية كانت تنهيها خلال عام أو أكثر، الآن وفي دقائق معدودة تطعمها للنار كي تشعر بالدفء. يا الله ما هذا الزمان الذي نعيش به.
سرحت بخيالها مع رجال الجيش، هؤلاء الأبطال الذين يقفون عند خط النار والبرد ينخر عظامهم وسلاحهم في يدهم، بكت واستنجدت بالله لحمايتهم.

تذكرت عندما جاءتها الكهرباء لمدة ساعة واحدة من أصل أربع وعشرين ساعة أنها رأت الأطفال في المخيّمات، النسوة يبحثن عن الدفء لأولادهنّ.
تذكرت أطفال فلسطين تحت خط النار في هذا البرد القارس: يا إلهي ارحمنا.
النار لا زالت تلتهم الأوراق والعجوز تبتسم، لقد شعرت بالدفء أخيرًا.
العتمة تلتهم المكان، لكن ضوء النار يرشدها إلى مكانها.
امتلأ الدخان في الغرفة، بدأت بالسّعال وعيونها الدامعة من شدّة الحرقة، لكنها ظلت تطعم أوراق رواياتها للنار، إنها تحرق سنين عمرها، لقد هان عليها كل شيء.

في الصباح، دخل أولادها فوجدوا جثتها جالسة أمام صفيحة معدنية ممتلئة بالرماد.. وعلى الأرض أغلفة رواياتها

هكذا كنتِ

تقاومين، تتوهجين، ترفضين بعناء وجبروت، كاحتضار الشمس لحظة غروبها، هكذا كنتِ سعيدة حدَّ الحزن.. تضحكين حدّ البكاء.

غريبة عن عالمك كنتِ.. ترجين السماوات بدموعٍ صامتة. لخيانات شائعة.

لأناس اختلطت قلوبهم بالحجر.

لأطفال يجمعون فتات طفولتهم.

لأحلام ترسو على مرسى من رماد.

هكذا كنتِ، هكذا كنتِ.

صفّق الحضور له، بحماس وإعجاب.

أما هي، مسحت دمعةً صعدت الى الجبين ورقدت، ورقد معها الصباح.

خيبة

كعصفور سجين يرفرف في قفصه، يريد الطيران عبر الفضاء الواسع، بعيدًا عن هذه القضبان كطفل مجروح متألم، يصرخ، يخبّط الأشياء، يجهل التعبير عما يريد. هو يريد حريته، ليفعل أي شيء، هو يريد التحرّر من القيود التي تكبلّه.

عاشت حياتها كهذا العصفور، وذاك الطفل، لكنها بعد صرخة ألم، صرخة رفض، صرخة ثورة، صرخة خرجت من قلبها، لتمزّق حجب الصمت الكثيفة، نعم لقد قررت أماني أن ترفض واقعها.

طلبت صديقتها ميساء من النادل فنجانيَّ قهوة سادة، ثم قالت لها: بالله عليك، ألا تخافين لو مرّ زوجك ورآك جالسة في هذا المطعم، وأنت تعرفين أكثر مني ماذا سيفعل؟

- لن يفعل شيئا، ولن أهتمَّ بما سيفعل، طالما قررت الانفصال عنه.
- كيف؟ وأنتم لا طلاق عندكم (ما جمعه الله لا يفرقه انسان) ثم ماذا بشأن الأولاد الذين يكسرون الظهر؟
- سآخذهم معي، أما بالنسبة للطلاق فلا يهمني، كل ما أريده هو العيش بعيدا عنه، أكره أفعاله، تصرفاته، إهماله وقلة احترامه لي.
- وإلى أين ستذهبين؟
- لقد استأجرت منزلا بسيطًا قريبًا من مكان عملي.
- تبدين جادة فيما تقولين.
- ألم أقل لك (قررت)؟
- هل أبلغت أهلك؟
- اليوم..

تركت ميساء صديقتها، وقرارها الذي فاجأها بجرأته وصلابته، ومضت مفتونة بعنادها الثوري، وإصرارها على الرفض، وفي داخلها بدأت تنمو أعشاب الأمنيات.

لو كان بوسعها كسر القيود، التخلّص من قرف سجن العبوديّة، لتعيش في بساتين الحريَّة الوارفة السعادة، كما ستفعل صديقتها أماني التي حسدتها على قوتها وجرأتها، ثمّ تعود وتسأل نفسها، (هل سأمتلك هذه القوة وهذه الجرأة، قبل أن يفوت الأوان؟.

بعد أيام قليلة، استيقظت ميساء صباحًا على شعورٍ لحوح الرغبة، لمعرفة ما حصل مع أماني.

تلاشت لهفتها، وخفتت نبرة صوتها الهاتفي، بعدما علمت من صديقتها أماني بموت الأماني، تحت شعار (خربان البيت ليس بالسهل) لتنتهي ثورة رفضها بصلح مشين، تحت ضغط الأهل والأصدقاء، دعتها قبل إغلاق الهاتف إلى فنجان قهوة صباحي، لتسمع منها تفاصيل ما جرى، وقامت إلى المغسلة وهي تتساءل ساخرة: ما هو العامر في هذه البيوت ويخشون خرابه؟.

تمعنّت ميساء في وجه أماني، وهي ترتشف قهوتها، حاولت أن تصغي لكلام قلبها المجروح، ولم تستطع تجاهل غيوم الحزن المتلبّدة في آفاق عينيها، ثمّ راحت تلحّ عليها بالأسئلة: ماذا بك؟ ألم يقربوا وجهات النظر بينكما؟ ألم يتمّ الصلح؟ لِمَ كل هذا الحزن؟

- الآن أدركت يا ميساء بأنّ معاني الأسماء تصبح مع مرور الزمن جزءًا من صاحبها، بضع كلمات تفوّه بها أبي، أخي، أمي وأختي، وهو بين مدافع عن ذاته، وبين سلبي لا إجابة لديه.. فجأة حاصرني الكل (هيا قبلّوا بعضكم من أجل الأولاد).

شعرت ميساء بالسخط على أهل أماني، وبالحزن على صديقتها، فدعتها لتناول الإفطار في المطعم نفسه الذي يلتقيان فيه دائما، لعلّها تخفّف عنها أوجاع حزنها، إلاّ أن أماني وبمزيد من الألم رفضت الدعوة مجيبة صديقتها: اعذريني ميساء، فلو رآني في هذا المطعم، فستثور ثائرته، ويستيقظ جنونه من جديد.

رنّ جرس الباب، قامت ميساء تستفسر عن الطارق قبل أن تفتح، طلب منها الشرطي أن توقّع في حقل محدّد على صفحة في دفتره، ثمّ ناولها ظرفا ومضى، عادت ميساء إلى حيث كانت تجلس قبالة أماني، وراحت تمزّق الظرف لتخرج ما فيه، لم تقرأ سوى جملة واحدة، لتسقط الورقة من يدها، ويترنح رأسها معلنًا بأن جسدها يتداعى وسيسقط على الأرض.

القصيدة

بعد عشرينَ سنةً من الأملِ، نَبَتَ فجأةً على شاشةِ جهازهِ إشعارٌ يدُلُّ على وصولِ الرِّسالةِ، تغيَّرَتْ مساراتُ الدِّماءِ في عروقِهِ.. فارتبكَتْ أصابعُهُ، والسّيجارةُ التّي كانت في يدهِ أراحَها على وبرِ السجَّادةِ بدلاً من أن يُجلِسَها في صَحْنِها، انتقلَ خفقانُ قلبهِ من تحتِ أضلاعِهِ إلى صدرِ الجّهازِ، فتحَ الرّسالةَ.. وقلبُهُ الذّي سبَقَهُ لصورَتِها.. انغمسَ في كُحْلِ عينيها.

تذوّقَ حزنَها، ومضى ثَمِلاً يقرأُ رسالتَها الطّويلةَ.. يقرأُ ويقرأُ ولا تنتهي.. الرّسالةُ طويلةٌ جدًا، ومضغوطةٌ جميعُها بجملةِ واحدةٍ (أرجو أن تكونَ بخيرٍ) كلُّ حرفٍ من هذهِ الجّملةِ ينطوي على آلافِ الصّفحاتِ.

حينَ أيقظَتْهُ رائحةُ السّجادةِ، شَعَرَ بحاجةِ روحهِ المُلحّةِ إلى فنجانٍ من القهوةِ، يُعِدُّهُ لنفسهِ.. وقلبُهُ لَمْ يَزَلْ مُنهَمِكًا بقراءةِ الرّسالةِ، مدَّ يدَهُ وأخرَجَ الولّاعةَ من جيبهِ ليُشعِلَ المَوقِدَ، فوجَدَ نفسَهُ تَهُمُّ بإشعالِ الغسّالةِ، ابتسمَ ساخرًا من نفسهِ، وانعطفَ نحوَ المَوقِدِ، وهو يشدُو ببيتِ شعرٍ من قصيدَتها الخالدةِ، القصيدة التي تقاسمتْ أبياتَها شغافَ قلبهِ، وذلكَ منذُ عشرينَ سنةً، يومَ دخلَتْ عليهِ وهي بكاملِ بهائِها، لتجتاحَهُ كعاصفةٍ عاطفيّةٍ، يمرُّ فيها الشّبابُ بسيولِ أنوثةٍ لم يشهَدِ التّاريخُ أرقَّ وأعذبَ من رحيقِها، لم يتمكَّن حينها - بسببِ السّحرِ المُنبَثِقِ من خلالِ رموشِها - أن يتأمل الفتنةَ المُقَدَّسَةَ والمُكَلَّلةَ والمُسَيَّجةَ بأغمارِ قمحٍ آراميةِ الهوى.. تفوحُ سنابِلُها بعطرٍ فينيقيٍّ عتيقٍ، هالةٌ طاغيةُ الجّمالِ والدّلالِ والحياءِ، غمرَتْهُ بسناها، فشلّتْ حركةَ جسدِهِ، وعزلتْهُ عن المكانِ والزّمانِ، عطرُها لم يزَلْ يقتحِمُ أزقَّةَ أعصابِهِ.. حينَ دخلَ في غيبوبةِ حبٍّ لمْ يعرفْها قلبُهُ البدائيُّ من قبل.

في طريقِ عودةِ ذلكَ اليومِ.. يداهُ تقودُ سيارتَهُ، وقلبُهُ يقودُهُ لغابةِ الجّمالِ التي غادَرَها منذُ وَجْدٍ، والتي ضاعَ في عوالِمِ سحرِها ليَقْطُفَ بكلِّ ما أوتيَ من عِشْقٍ، حبّاتِ الشعرِ من أغصانِها، ويعيدها عِقدًا خالِصَ الهيامِ لجيدِ قاتِلَتِهِ.

رسَمَها على خدودِ الورقِ أكثرِ من مرّةٍ، وبأكثر من قلمٍ ولم تُرضِهِ، نضَّدها على الآلةِ الكاتبةِ، وفي أيامٍ قليلةٍ وضَعَها بينَ يديها دون إهداءٍ، حالاتٌ كثيرةٌ اعترَتْ كيانَهُ، مَنَعَتْهُ من تدوينِ الإهداءِ، فالإهداءُ إعلانُ حُبٍّ غيرِ مُعْلَن.

ليلاً يتساءلُ كلَّما لاحَ لقلبِهِ الشّعرُ: هل وصَلَتْها القصيدةُ كما يشتهي فؤادُهُ؟ أم حَسِبَتْها عيّنةً اختارَها بشكلٍ عفويٍّ، من بينِ قصائدهِ ليُطْلِعَها على تجرِبَتِهِ؟

رائحةُ البُنِّ المنْداحِ على المَوْقِدِ فَشِلَتْ في استعادتِهِ من غاباتِ ذاكرتِهِ، فاستعادَتْهُ رائحةُ الغازِ المؤذيَةُ.. أيضًا ابتسَمَ ساخرًا من نفسهِ، وراحَ يُعيدُ الكرّةَ من جديدٍ.

في الصّفحةِ العشرينَ من رسالةِ (أرجو أن تكونَ بخيرٍ)، كانَ يقرأُ سطورَ حَسَراتِه ومراراتِ نَدَمِهِ، على تقصيرِهِ بعدمِ تدوينِ الإهداءِ على صدرِ القصيدةِ، ليدخُلَ في غيبوبةِ التساؤلِ: كيفَ تمكَّنَ الزّمَنُ وبسلاسةٍ مقيتةٍ، أن يُباعِدَ بينهما ولا شيءَ يربطه بها سوى احتمالِ القصيدةِ.

أثناءَ عودَتِهِ إلى مكانِ جُلوسِهِ، كانَ يَحْمِلُ بيمناهُ صَينيّة قهوَتِهِ.. اصطَدَمَ وهوَ يشدُو مترنِّمًا ببيتٍ من قصيدتِها، بباب خُلوَتِهِ، فسقطَتْ الصّينيةُ من يدِهِ.. وانسكبت القهوة على ثيابِه، فابتسمَ ليسَ

ساخرًا، في هذهِ المرّةِ، من نفسهِ، بل سعيدًا وهو يهمسُ: لا ضَيرَ من ذَلِكَ، طالما أنَّ القصيدةُ وصلَتْ، ولو بعدَ عشرينَ سنةً!!

الطبل

كبير وينطوي على فراغ كبير مريع، لا حقيقة لديه سوى ضخامة صوته وفخامته، يدوي الطبل، يعلو بصخبه أهازيج الفرح، ويكاد يضيق بالرقص المكان، أمّا هي، فكان قلبها نائمًا وربما مخدّرًا.
الطبّال يضرب الطبل بفرح وقوة، أمّا هي فتشبه الورود التي غزاها إعصار هائل واقتلعها.
الطبال يضربُ بقوة يستمدُّها من نشوة الحبِّ، وارتعاشة الهوى ويوقظ بعصاه أعشاب الإثارة.
أمّا هي، فكانت تجفّف دماء قلبها، وهي تتلوّى كبهلوان على حلبة.
فجأة صرخت. توقّف الطبّال عن إيقاعه، وانطفأ دفعة واحدة توهج

الصخب، وعنفوان الضجيج.. للحظة توقف كل شيء، حتى النجوم انطفأت، واختبأت خلف القمر.

صرخت لتقول: اصمت، إن روحي تتغذّى على إيقاعات هذا الطبل الكبير الأجوف.

تراخى الطبل من يد صاحبه، ووقع أرضًا، وأمَّا روحها، فأخذت تتجرّع من دماء قلبها، لتحيا.

موت

أحبّائي القرّاء الأعزّاء، أدعوكُم الدخول إلى تلكَ الزاوية بداخلي، أدعوكُم لقراءةِ بضعةِ أفكارٍ تراودُني أحيانًا.

منذُ سنةٍ وأنا أرى جارتي العجوز الطيّبة قد وَقَعَت فريسةً لأمراضٍ عدّة جعلتْها طريحةَ الفراشِ، أسيرةً لقنواتٍ دينيّةٍ تُحَرِّكُ مشاعرَها نحوَ بيتٍ في الجنة.
كلّ يومٍ أنهي زيارتي لها وأنا أُتَمْتِمُ مع نفسي "رُبّما اللّيلة ستنتقِلُ إلى الآخِرة".
بقيْتُ على هذه الحال سنةً كاملةً، إلى أن جاءَ ذلكَ اليومَ الذّي سأحدّثكم عنهُ الآن.

دخلْتُ على جارتي الطيّبةِ.. وجَدْتُ الغرفةَ مليئةً بالجيرانِ والأقرباءِ وهيَ على فراشِها والكاهنُ يُصَلّي ويُناولُها قربانة الخلاصِ كما طلَبت.

- إنَّها متعبةٌ جدًّا ويبدو أنَّ ساعتها قد حانَتْ.

بحضرةِ المرضِ، الصمتُ يسودُ.

بهيبةِ استقبالِ الموتِ نسمةُ حزنٍ تسودُ.

فجأةً، دوى صَوَت كالصاعقةِ، زُجاجُ المنزلِ والشّارعِ قد تهشَّمَ، شظايا ملأتِ المكان، دويُّ سيّاراتِ الإسعافِ. شعرتُ بماءٍ دافئٍ يتدفّقُ من رأسي، صحوتُ لأجِدَ نفسي في المستشفى أنا وبعض جاراتي اللّواتي كُنَّ جالساتٍ بجانبي. صوتُ ابني الممتلئ حنانًا:

- الحمدُلله على سلامتكِ أمّي. قال الطّبيبُ أنّكِ بخيرٍ. لِنَعُدْ إلى البيتِ.

- ما الذّي حدثَ؟

- رمى هؤلاءُ الشياطين صاروخًا على المدنييّنَ.

وصلتُ منزلي إلّا أنّني أَبَيْتُ أن أدخلهُ قبلَ الاطمئنانِ على جارتي العجوزِ.

عادَتِ الحياةُ كما كانت، هدوء، صمت، انتظار الموت، موتُ العجوزِ.

رَفَعَتِ العجوزُ يدَها وكأنّها تودّعنا لتستقبلَ الزائرَ الذّي طالما كانت تتوقّعُ حضورَهُ.

فتحَتْ عينيها، حرّكَتْ شفاهها، شهَقَتْ، رَحلَتْ.

- لقدْ ماتَتْ، رحمها الله.

بسرعةٍ قالَ ابنُها: لنتّصلَ بالطّبيبِ، ربّما هناك أمل.

ربَّتَ الكاهنُ على كتفِهِ قائلاً: لقَدْ شَهَقَتْ شَهقَةَ الموتِ يا بنيّ، الأمر انتهى.

لا أخفي عليكم أعزّائي السؤالَ الذّي راوَدَني: من قالَ إنَّ الموتَ يكمنُ في الشّهقةِ الأخيرةِ؟

أذكرُ أنّني طرحتُ هذا السؤالَ على صفحَتي الفيسبوكيّة وكَثُرَتِ التعليقاتِ، لكن الذي لفَتَ نظري هو تعليقُ صديقتي حيث كتبَتْ: من عاشَ هذه الأيام في سوريا وعاصرَ أحداثَها وأَلَمَها ودمارَها وقذائفَها يدركُ تماماً أنَّ الموتَ ليسَ بالشّهقةِ الأخيرة.

البهلوان

بينما هي جالسة مع صديقاتِها، يضحَكنَ، يُثَرْثِرنَ، دخلُ هوَ ومجموعة من الأصدقاء، يبدو غريبَ الأطوارِ والملامحِ والملابسِ، غمزَ لها، وابتسامته العريضة تكشفُ عن أسنانٍ بيضاءَ جميلةٍ، يرتدي قميصًا ملوّنًا بألوانٍ غيرَ متناسقةٍ، تدعو للضحكِ، وأمّا بنطاله فهو عريضٌ بشكلٍ يثير السخرية.

يضحكُ، يتحرّكُ بشكلٍ لافت للنّظرِ وهذا ما أرادَهُ، كلُّ همِّه أن يجذب انتباهها، أطلَقَتْ عليه بينها وبين نفسها اسم: [البهلوان].

في اليومِ التّالي، وهيَ في المكتبةِ، تبحثُ عن كتابٍ يساعدُها على إكمالِ بحثها في علوم الطاقةِ، وإذ بيدٍ تمتدُّ لتقدِّمَ لها كتابًا لطالما بحَثَتْ عنه، غمَزَ لها مُبتَسِما، ابتَسَمَتْ شاكرةً، وأخَذَت الكتابَ وفي طريقِ عودتها تساءلت باستغرابٍ: "من يكون ذاكَ البهلوان؟ كيف

عرفَ بأنّني محتاجةٌ لهذا الكتابِ؟" تابَعَتْ سيرَها بابتسامةٍ على شفَتَيها، وخفقةٍ جديدةٍ في قلبِها بطعمِ البهلوانِ.
اعتكَفَتْ في البيتِ بضعةَ أيّامٍ، مشغولةً بإنهاءِ بحثِها، وبعدَ تعبٍ شديدٍ، نزعَتْ روحَها لفنجانِ قهوةٍ، قامتْ مدفوعةً برغبةٍ جامحةٍ لتجِدَ أنّ قهوتها قد نَفَدَتْ.
دخَلَتْ الدّكان المجاور للبناءِ الذّي تسكنه، واتّجَهَتْ صوبَ الرّفوف التي عليها أنواع كثيرة من القهوة، لكنَّ يدًّا امتدَّتْ لتُقَدِّمَ لها القهوةَ التي تختارها دومًا.
نظَرَتْ إليهِ باستغرابٍ مشوبٍ بالرضا والفرح، وختَمَت نظرتَها بابتسامةٍ لطيفةٍ، أمّا هوَ -كعادتِهِ- غَمَزَ وابتسم.
عادتْ إلى منزلِها، وجلسَت ترتشفُ قهوتَها، بين ضفافِ الرّضا وأمواجِ التساؤل: من يكونُ ذاكَ البهلوان الرائع؟ ماذا يريدُ منّي هذا المُحَبَّب لقلبي؟ كم يبذلُ من الجّهدِ لصناعةِ مفاجآتِهِ؟!
بعدما أنهَتْ بحثَها، نَزلتْ إلى الحديقةِ التي تبعدُ عن منزلها بضعةَ أمتارٍ. جلسَتْ تتأمَّلُ الجّمالَ، وتنظرُ إلى النّحلاتِ، وهنَّ يتسابقنَّ لمنازلةِ الأزهارِ، وتصغي في طربٍ لشدوِ العصافيرِ.
يدٌ تمتدُّ لتقدَّمَ لها وردة حمراء. نظرَتْ إلى ابتسامتهِ العريضةِ فغَمَزَ لها، إنّه البهلوان الذي كانت تتمنّى حضوره.

ابتسَمَتْ له، أشارَتْ بيدِها ليجلس بجانبها، تبادلا أحاديثًا شتّى، وقعَتْ في غرامِه، وبدَتْ كفراشةٍ جميلةٍ متألّقةٍ، يحملُها في شغاف قلبِهِ.. فتحَتْ أبوابَ حواسها له، لقد أحبّتهُ.

التقيا مرّاتٍ عدّةٍ، سارا جنبًا إلى جنب في تلك الحديقة، لاحظَتْ بروز ريش ملوّن على كتفيه وأطرافه، ريش ملوّن بألوانٍ زاهيةٍ تدعو إلى البهجةِ.

دُهِشَتْ وقالَتْ له بانفعالٍ وفرحٍ: كم هو جميل هذا الرّيش الذي يكسو أكتافك وأطرافك!.. ابتسمَ بزهوٍ وفرحٍ واختفى.

باتَتْ تبحثُ عنه، وكلّما التقته لاحظَتْ ازديادَ ريشه الملوّن الجّميل، إلى أن جاء إلى منزلها، وتناولَ معها الإفطار، في غرفةِ نومها.

وقفَتْ أمام النّافذة المطلّة على الحديقةِ الجميلة، وراحتْ تعاتبُهُ بشدّةٍ لبُعْدِهِ وجفائِه، وتسأله عن غيابِ ابتسامتِهِ وغمزَتِهِ، وبينما هي تتكلّم، نَظَرَتْ إليهِ فلاحَظَتْ بأنَّ الرّيشَ قد كَسَا كامل جسده، وبَدَتْ لها يداهُ كجناحي طاووسٍ كبيرٍ، ولمّا أدرَكَتْ بأنَّ بهلوانها الجّميل لا يسمعُ ما تقول.

غادرَتْ غرفةَ النّومِ وجلَسَتْ في غرفةِ الجّلوسِ لتستمع إلى موسيقا النّاي الحزينة التي تهزُّ القلبَ لكنّها ما هزَّتْ سوى جناحيهِ اللذين فرَّ بهما من النافذةِ، وغابَ مُحَلِّقًا في أُفُقٍ من ضبابٍ.

ذاكرة

تذكّرت وهي في آخر الشارع الذي يقع فيه منزلها، بأنها في آخر عام جامعي وقعت في حبّه، في آخر الصيف تزوّجا، وفي الشهر الأخير من السنة قبل الماضية وضعت طفلتها، وفي آخر الربيع سكنت المنزل الذي أصبحت على بابه، دخلت وهي ما تزال تتذكّر كيف كانت تلتقيه على آخر مقعد في الحديقة، وفي آخر كل جلسة، وآخر نظرة قبل الافتراق، كانت تنقل له بعينيها آخر أمنيات قلبها، وفي آخر ساعة من الخطوبة ارتبكت، فانسكب فنجان القهوة على بنطاله، وفي آخر لحظة من حفل زفافها رمته مازحة بزهر الياسمين، وعند شراء آخر حاجة يحتاجها الوليد، ابتسمت له طويلاً ويدها على بطنها، وفي آخر ليلة قبل الولادة اعتقل، تذكّرت كل الأواخر التي حصل فيها ما حصل، الشيء الوحيد الذي حصل لها في البداية، أول التذكر هو البكاء، إلا أنها نسيت أن تتذكره.

مُراقبَة

- هذا آخر أيام الامتحانات، وبعدها تكون الإجازة الصيفية لنرتاح بعض الوقت.

ابتسمت صديقتي أمل لما قلته ونحن متوجهتان للجنة الامتحان، أجابتني: نعم، لابد أن نأخذ شهرين في الصيف إجازة، سأرتاح جسديًا وفكريًا وماديًا.

أجبتها والحيرة تملأني: جسديًا! نعم، لكن لم أفهم فكريًا وماديًا؟

- ماديًا، لأنّ دورات التقوية التي وضعتها لابني ستنتهي بانتهاء العام الدراسي، كما أنك لا تستطيعين تصور شدِّة تعبي وإرهاقي على مدى عام دراسي كامل من متابعته، وملاحقته، وتحفيزه، وعقابه حتى يحقق أفضل النتائج.

...

التقت عيناي بعينيه، بنظرة توبيخ وتحذير، كيف لا وهو الذي استدار لينظر في ورقة زميله الجالس خلفه؟

القاعة هادئة، الكل يكتب، إلا هو، تراه يحاول أن يلتفت ورائه، ينظر إلى ورقة زميله الذي أمامه، يمينه، يساره، وأنا، أتابعه بنظرة تحذير، ومرة بإشارة من يدي، ليكف عن محاولات الغش هذه. ومرة أخرى اقترب منه لأوبّخه.

بدأ الأمر يزداد، هددته بسحب ورقته، وهذا سيؤدي إلى وضع الصفر وبالتالي رسوبه، هدأ قليلا، اقتربت منه لأقرأ اسمه، فوجدته رامي، طفل نحيل، أسمر، قصير، غض جدًا، هو طفل.

ازداد انزعاجي وانزعاج زميلاتي من وقاحته، واستمرار محاولاته بالحصول على الإجابات من رفاقه، وجدت نفسي أحدثه بعصبية شديدة:

- اسمع يا رامي، لو أنك درست لما احتجت إلى الغش.
- أرجوك يا آنسة فقط ساعديني لأنجح في هذه المادة، فأنا لا أريد الرسوب.
- من لا يُرد الرسوب، يدرس ويجتهد ويتابع.

دمعة امتلأت في عينيه وبكى بصمت، ووجدتني أتابع توبيخي له: طبعًا الآن تبكي وتذرف الدموع، لكنك بالأمس لا بد أنك كنت تلعب وتستهتر بامتحانك.

اقتربت صديقتي أمل مني لتهمس لي: دعيني أساعده حتى ينجح في هذه المادة.

بعناد وشدة أجبتها: لا، فهو كغيره من رفاقه، دعيه ينال نتيجة تقصيره، فهو لن يكون كابنك الذي يدرس ويتابع سواء مع دورات التقوية أو معك.

- لا يا صديقتي، هو ليس كابني، فأنا وجدته أكثر من مرة في مطعم السعادة يقدم نار النراجيل لزبائن المحل، فهو يعمل ليساعد والدته التي نزحت من منزلها مع إخوته الستة ووالده العاجز الذي فقد رجليه نتيجة إصابته بقذيفة هاون سقطت على منزلهم.

ثم التفتت امل وسألت رامي: في الفصل الأول حصلت على نتائج معقولة بالرغم من عملك، ما الذي تغير؟

أجابها وهو يذرف دموعه بحسرة وقهر: حاولت أن أحصل على إجازة من صاحب المطعم لأدرس لكنه رفض، وأنا أنهي عملي يوميًّا في منتصف الليل.

صدمت مما سمعت، قرع الجرس.. وقت الامتحان قد انتهى.
أنا واقفة مذهولة، هل احتضنه لأعتذر له ولطفولته؟
بخجل نظرت لصديقتي، وقلت وكأنني أدافع عن نفسي: لكنه واجبي، فأنا مراقبة في قاعة امتحان!
أخذنا الأوراق، وخرجنا من قاعة الامتحان تاركين رامي يبكي طفولته المسلوبة.
عدت إلى منزلي وسؤال يلح عليَّ...

قذيفتان وكِسرة

اندفعت قذيفتان بتحدٍّ، وكلٌّ منهما تزمجر.. فمن منهما ستسكن جسد هذا الطفل الغافي على ذاك الرصيف بين حطام سيارة وفي يده كسرة خبز يحتضنها بقوّة.

ربما يحلم بوالده الذي وعده قبل أن يذهب إلى عمله أن يحمل له دمية جميلة في طريق عودته ولم.. يعد.

وربما ينتظر والدته التي ذهبت لتشتري له حذاءً ليحمي به قدميه من قذارة الأرصفة وقسوة الشوارع ولكنها لم.. تعد.

علا صوت قهقهة القذيفتين، فالرهان بينها قوي، فمن منهما ستسبق وتخترق جسد ذاك الطفل الصغير الغافي مع أمنيات... تحتضر.

سيارات مسرعة، أناس تركض خوفا من قذائف تتوالى وأصوات صواريخ تعلو بضجيج موسيقيٍّ نشِاز.

العصافير تقفز على الرصيف بحذر باحثة عن مكان تختبئ فيه، وكأنها تدرك أن الطيران هو علامة تحدٍّ لا بد من القضاء عليها برصاصة قناص أو قذيفة.

زمجرة القذيفتين عَلت بنشوة الانتصار فقد وصلتا في اللحظة ذاتها، أصابتا جسده الصغير في اللحظة ذاتها.. تشظّى جسده الغافي إلى دررٍ مفتتة متناثرة هنا وهناك، وفي ركن من أركان الرصيف نامت كفٌّ تحتضن في ضعف كسرة خبز.

المحتويات

إهداء.. ٥
الحق الوحيد... ٧
خدعة.. ١١
لا تعليق... ١٥
سوء فهم... ١٩
هجرة.. ٢٣
غيمة... ٢٧
العابر.. ٣١
صمت... ٣٥
حلم... ٣٧
مسؤول... ٤١
الشرفاء.. ٤٣
تشابه... ٤٧
فستان سهرة.. ٥١
لقاء... ٥٥
سيدة القصر.. ٥٧
المعطف الأسود.. ٦٠

نعوات..٦٤
اعتذار جلاد.. ٦٦
في محطة القطار..٦٨
سُكر...٧٢
عجوز... ٧٤
هكذا كنتِ...٧٨
خيبة...٨٠
القصيدة.. ٨٤
الطبل..٨٨
موت ٩٠
البهلوان...٩٤
ذاكرة... ٩٨
مُراقبَة..١٠٠
قذيفتان وكِسرة.. ١٠٤
المحتويات...١٠٦